الإمارات بعد 50 عاما... نقطة مضيئة في الظلام العربي

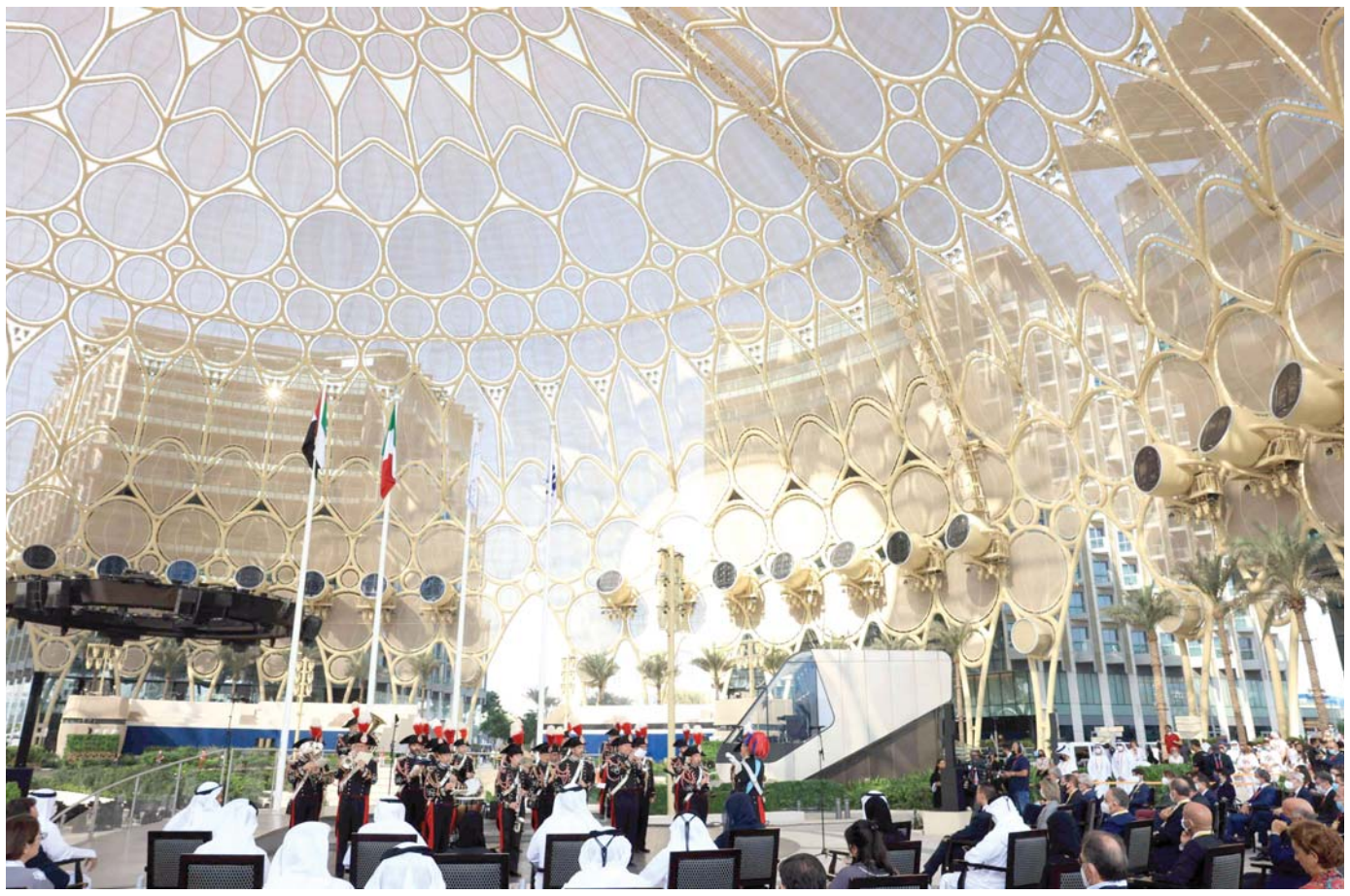

إنجازات لا تُحصى ولا تُعد

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

يمكن الحديث طويلا عن إنجازات حققتها دولة الإمارات العربيّة المتحدة في الذكرى الخمسين لقيامها. لكنّ الإنجاز الأكبر يظلّ في أننا أمام دولة تؤمن بالإنسان وصناعة الإنسان، دولة مسالمة متصالحة مع نفسها ومع شعبها أوّلا. دولة تبحث عن صفر مشاكل مع محيطها ومع العالم. دولة من دون عقد قادرة على مراجعة سياساتها وجعلها تتلاءم في كلّ وقت مع رؤية المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

ثمّة إرادة سياسية حقيقية تستهدف استخدام الثروة من أجل الاستثمار في كلّ ما هو إيجابي وحضاري بعيدا عن أي عقد. هناك أسس واضحة لمشروع يضع الثروة في خدمة الإنسان. إنّه مشروع مساهمة في بناء الإنسان. هكذا بكل بساطة. الإنسان محور تجربة الإمارات

كانت هذه الرؤية، التي محورها الإنسان، وراء قيام دولة الإمارات التي تبقى التجربة الوحدوية العربية الوحيدة التي حققت نجاحا. نجحت التجربة الوحدوية للإمارات نظرا إلى أنها استطاعت خلق مصالح مشتركة بين كل الإمارات التي يضمها الكيان الذي قام مطلع سبعينات القرن الماضي. كانت هذه الرؤية التي امتلكها الشيخ زايد وأورثها إلى أبنائه وراء كل ما قدمته الإمارات طوال سنوات، وما تزال تقدّمه للعرب ولغير العرب، لليمن أو لمصر أو للبنان ولدول عربية أخرى. استطاعت الإمارات أيضا خلق مصالح مشتركة مع كلّ المقيمين فيها من 200 جنسيّة مختلفة. بات لدى هؤلاء، الذين يشكلون نسبة عالية جدا من السكان، اهتمام حقيقي في المحافظة على الأمن في البلد.

لا يمكن تجاهل العلاقة التي أقامها الشيخ زايد مع اليمن وكيف أنّه كان وراء إعادة بناء سدّ مأرب في العام 1986 كي يبقى اليمنيون في أرضهم. لا يمكن تجاهل ما قدمته الإمارات لمصر، خصوصا في العام 2013 حين دعمت، مع المملكة العربية السعودية والكويت، شعبها في تخلّصه من حكم الإخوان المسلمين وتخلّفهم. ليس سرّا أيضا أن الإمارات كانت دائما داعمة للبنان حيث قامت بحملة للتخلص من الألغام في جنوبه. بنت في لبنان، بين ما بنت، مستشفيات ومدارس واستثمرت في كلّ ما له علاقة بالتنمية لعلّ لبنان يستعيد عافيته يوما بعد الهزة التي تعرض لها في ذلك اليوم المشؤوم من العام 2005 عندما اغتيل رفيق الحريري. خيّب لبنان كلّ الآمال المعلّقة عليه بعدما صار تحت الانتداب الإيراني وبات مستقبله في مهبّ الريح.

في الإمارات يشعر الزائر بالأمان. يشعر في الوقت ذاته أن هناك مواطنين يعملون لبلدهم. في النهاية، لا شيء ينجح مثل النجاح. يتجاوز الأمر نجاح حدث عالمي مثل سباق "فورمولا وان" الذي تستضيفه أبوظبي كلّ سنة منذ العام 2008... أو معرض "إكسبو 2020" في دبي. إنّه نجاح يعطي فكرة عن تطوّر مجتمع وبلد ومؤسسات الدولة.

ثمّة إرادة سياسية حقيقية تستهدف استخدام الثروة من أجل الاستثمار في كلّ ما هو إيجابي وحضاري بعيدا عن أي عقد. هناك أسس واضحة لمشروع يضع الثروة في خدمة الإنسان. إنّه مشروع مساهمة في بناء الإنسان. هكذا بكل بساطة. الإنسان محور تجربة الإمارات. من هذا المنطلق، كان الاهتمام الدائم بالمواطن وكان التركيز على التعليم وتطوير البرامج التعليمية تحديدا كي يبتعد الطفل والشاب الإماراتي عن الخرافات وعالم التخلّف.

عبرت الإمارات إلى القرن الحادي والعشرين. هذا هو الفارق بينها وبين آخرين ما زالوا أسرى الماضي. عرفت الإمارات أن مصلحتها في علاقات طبيعية مع إسرائيل، من دون التخلّي عن موقفها الداعم لحقوق الشعب الفلسطيني. مصلحتها أيضا في الحصول على أحدث تكنولوجيا في العالم أكان ذلك من الصين أو أميركا أو روسيا أو فرنسا أو ألمانيا... أو كوريا الجنوبيّة. تتطلّع الإمارات إلى ما بعد عصر النفط. تنظر إلى البيئة وإلى الطاقة النظيفة مثل الطاقة الشمسيّة.

الأكيد أن أهم ما يخرج به من حضر أي نشاط ثقافي أو رياضي في أبوظبي والإمارات الأخرى، ذلك التطوّر الذي طرأ على الإنسان. ما يلفت الزائر هو وجود المواطن الإماراتي في كلّ مكان من أجل خدمة الزائر وتقديم صورة حقيقية عن التقدم على صعيد المجتمع.

لم تعد أبوظبي مركزا للمصارف والمستشفيات العالمية الكبيرة ولشركات النفط الكبرى ولمشاريع إنمائية ضخمة وللطاقة النظيفة فقط. لم تعد مركزا لاستقطاب المتاحف العالمية مثل غوغنهايم واللوفر ولكبرى الجامعات، أو لمعلم كبير مثل مسجد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان فقط. إنّها فوق ذلك كلّه مكان لصنع إنسان عربي جديد يعرف قيمة العمل الجدّي. هذا ما يفعله الإماراتيون. إنّهم، في معظمهم، لا يخجلون من العمل. العمل صار ملازما لصفة المواطن، بل موضع فخر له.

لم يأت هذا التطوّر من فراغ. لدى العودة إلى التراث الذي خلفه الشيخ زايد، نجد أنّه عرف كيف يبني الاتحاد في ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد. كذلك، عرف كيف يبني المواطن في الوقت ذاته. ربط بين العلم والعمل والحداثة والإنجاز وثقافة التسامح والانفتاح على كلّ صعيد. البلد صار أخضر. تغلّب الشيخ زايد على الصحراء. المناخ صار أقلّ قساوة تجاه الإنسان. فوق ذلك كلّه، بات الشاب الإماراتي بعد تقديم شهداء في اليمن، يعرف معنى التضحية من أجل الدفاع عن بلده والمحافظة على أمنه. لا تبنى الجيوش الحديثة من دون تضحيات ومن دون تجربة خوض معارك حقيقية.

تمثل الإمارات، التي تركّز على الاهتمام بشعبها وربطه بثقافة الحياة، نموذجا عربيا مختلفا. تبقى نقطة مضيئة في هذا الظلام العربي. إنّها نموذج الدولة القادرة على مواجهة التحديات الإقليمية بحكمة وصبر من جهة والانصراف في الوقت ذاته إلى الاهتمام بالداخل من جهة أخرى. لعلّ المثل الأفضل عن حكمة الشيخ زايد التي ورثها أبناؤه طريقة التعاطي مع إيران التي تحتل ثلاث جزر إماراتية منذ العام 1971.

هذه الجزر المحتلّة، التي ترفض "الجمهوريّة الإسلاميّة" التفاوض في شأن مستقبلها، تؤكّد أن شيئا لم يتغيّر نحو الأفضل منذ رحيل الشاه. على الرغم من ذلك، لم تتخلّ الإمارات عن هدوئها وعن رغبتها في علاقات أفضل مع إيران أو مع تركيا التي زارها الشيخ محمّد بن زايد وليّ عهد أبوظبي أخيرا، على الرغم من كل ما يبدر عن مسؤولين في البلدين من تصرّفات عدائيّة لا علاقة لها بالقيم الحضاريّة في هذا العالم.

باعتماد الحكمة والصبر والإيمان بالإنسان وامتلاك القدرة على مراجعة سياستها، متى تدعو الحاجة إلى ذلك، بقيت الإمارات وفيّة للشيخ زايد. في ذلك التكريم الحقيقي لمؤسس الدولة ولإرثه وقيمه التي آمن بها.

الغزاة الغرقى لم يصلوا

فاروق يوسف
كاتب عراقي

لماذا يهرب العراقيون، عربا وأكرادا من وطنهم؟ سؤال يمتزج فيه الخبث بالسذاجة. إضافة إلى أنه يقول كل شيء عن ذلك اللاشيء الذي صار العراقيون يعيشونه وهم في حالة خواء خيالي.

المناسبة هي غرق 27 مهاجرا غير شرعي في قناة المانش وهم في طريقهم من فرنسا إلى بريطانيا بعدما فرغ زورقهم المطاطي من الهواء. كان أحد الناجين عراقيا والآخر صوماليا. أما الذين غرقوا فغالبيتهم كانوا أكرادا عراقيين.

ليس لدى مَن نجا الكثير لكي يرويه عن الأهوال التي عاشها ورفاقه في مواجهة الموت. ولكن بالتأكيد لديه ما يرويه عن الأسباب التي دفعت بهم إلى خوض تلك المغامرة التي كانوا يعرفون أنها قد تنتهي بالموت.

ولكن ليست هناك أذن لتصغي.

لقد قالوا على اليابسة كل شيء وحين شعروا بأن الأرض خذلتهم لجأوا إلى البحر في طريقهم إلى جزر السعادة. تلك الجزر التي تضم مستعمريهم السابقين واللاحقين. أولئك الشهود الذين رأوا بأعينهم كيف تسلل الخراب إلى حياتهم وكانوا فاتحين لزمن لن يقوى العراقي فيه على أن يمسك بخيط من مصيره.

لقد تعرفوا على سكان تلك الجزر باعتبارهم غزاة داسوا بدباباتهم كل أسباب الحياة فقرروا أن يغزوهم بحثا عن سبب واحد لحياة ستكون ناقصة غير أنها قد تكون كفيلة لأن يقضي فيها المرء ما تبقى من عمره في محاولة استعادة إنسانيته التي سرقها الغزاة.

ما ينبغي أن نكون على ثقة منه أن العراقي لا يلجأ إلى غزاته مستغيثا بهم بل يأتي محمولا على جناحي سؤال مرير هو "لماذا فعلتم بنا كل هذا؟".

وإذا كان الغزاة لم يظهروا ندمهم على ما فعلوه بالعراق فلأنهم لم يقيموا وزنا للحياة البشرية في ذلك البلد الذي شهد تدميرا ممنهجا عبر عقود من الحروب المتلاحقة انتهت بمعجزة الغزو الذي كشف عن ميل فتاك إلى الرذيلة والانحطاط والجريمة والإصرار على أن يكون الفساد هو الهدية المزعومة بدلا من الديمقراطية التي كانت أكبر كذبة أوهم الغزاة شعوبهم من خلالها بأنهم ذاهبون إلى الحرب من أجل نشرها وتسويقها وترسيخها لدى ذلك الشعب المستعبَد الذي يحلم بالحرية.

ألم يكن الإرهاب مرآة لتلك الهدية؟

سيكون من الصعب على الإنسان الإنجليزي العادي أن يتعاطف مع أولئك الغزاة الذين ابتلعهم البحر وصاروا طعاما للأسماك في منطقة تشهد حروبا بين الصيادين الفرنسيين والإنجليز.

بالتأكيد شعر الإنجليز بالخوف حين سمعوا بأن هناك مَن يسعى لغزوهم بالقوارب المطاطية. لن تحضر في أذهانهم ذكرى دباباتهم التي داست على رؤوس العراقيين وعجنتها بتراب أرضهم التي تعج بأصوات بناة الحضارة الإنسانية الأولى. لم يسمع أحد تلك الأصوات. عالمنا يكتسب طاقة الحياة من التضليل الإعلامي. عالمنا لا يبحث عن الحقيقة إلا باعتبارها نوعا من الزيف الذي وحده يمكن أن يحمل أخبارا مرحة.

هناك طفل وُلد ميتا على الحدود التي تفصل بين بيلاروسيا وبولندا، في غابة كانت أمه قد قضت أياما فيها هاربة من أعين حراس الحدود. طفل لم ير ثلج بولندا ضمته أرضها باعتباره لاجئا. لقد تحقق حلمه في أن يذكر ولو بولنديا واحدا بأن جنودا بولنديين كانوا قد انتهكوا حرمة بابل ومشوا في شارع الموكب باعتبارهم غزاة.

أقبل في أن يكون المرء محايدا أمام تلك المأساة لكن بشرط أن يتحلى بقدر من الانصاف. لا شيء يمكن أن يعوض تلك المرأة فقدان طفلها. ولكن بولندا لن تُسرّ في ما لو تعرضت للمساءلة عن مسؤوليتها في انهيار العراق الذي هو سبب قدوم تلك المرأة لاجئة إلى أرض أجنبية لا تعرف عنها شيئا سوى أن جيشها غزا بلادها ودمّر أسباب العيش فيها.

ليس لدى مَن نجا الكثير لكي يرويه عن الأهوال التي عاشها ورفاقه في مواجهة الموت. ولكن بالتأكيد لديه ما يرويه عن الأسباب التي دفعت بهم إلى خوض تلك المغامرة التي كانوا يعرفون أنها قد تنتهي بالموت

يكره الإنجليز الاعتراف بمسؤوليتهم عمّا حدث للمهاجرين الغرقى ويحمّلون فرنسا المسؤولية. ذلك ما يُسمّى بالهروب إلى الأمام. إنهم يحاربون بمنطق بريكست فيما الحقيقة تقع خارج ذلك. العراقيون يهربون من جحيم كنتم قد ساهمتم في صناعته وإدامته من خلال الاستعانة بإيران. لا أحد يمكنه أن يقول ذلك وإن قاله فإن ضجيج التضليل لن يسمح لأحد بأن يسمع ما يقول.

سيمرّ الخبر. غرق قارب مطاطي. كانت هناك قوارب مطاطية كثيرة غرقت يوم قرر الرئيس التركي رجب طيب أردوغان غزو أوروبا بالسوريين. لم يحدث شيء. وحتى شاهدة قبر الطفل العراقي على الحدود البولندية يمكن أن يغطيها الثلج. ما هو مهم ألاّ يعكر الغزاة الجدد صفو حياة الغزاة القدامى.

محاولة إيجاد ملاذ آمن

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk